

الابداع الفخ

في "نقرا العصافير"

أ. محمد فهدى سند

ها هي ذى النجوم تتساقط وتنطفئ مشاعل الإبداع واحدة تلو الأخرى تاركة ألم الفراق ، ولوعة الفقد ، وإبداعاً يظل يضيء ما بقى عشاق للكلمة المرفقة الشاعرة ، وأجيال تبض بالفناء لأساتذة أعطوا حياتهم للفن والشعر .

ومن بين حبات العقد التى تتساقط كان الشاعر الكبير المرحوم « أحمد قنديل » الذى رحل .. وترك عصفيره تنقر فى عقل الجيل الصاعد ، مخلفاً عثاً جميلاً أخرجه للوجود « دار تهامة » للنشر ليكون بيتاً للحب . ومكاناً دافئاً للعصافير الزغب ، ترح فيه تلتقط الحب والحب ، فى تناغم أخال ، وإيقاع رائع ، تتعانق فيه الصور مع الفكرة فى سلاسة وبساطة ، تتمحور جميع الفصائد حول الرغبة فى الحياة والنشيط بها ، رغم زحف الموت البطيء ، الذى يتسلل عبر الثوانى والدقائق والساعات والأيام ، ثم ينتفض فجأة ملتقطاً النأى العازف للكون ، ومُسكناً فيشارة الحياة ، تاركاً العثر والعصافير الصغيرة تجاليد العواصف ، والأعداء ، متحسنة أعواد القش ، ودفع النبض الذى سكت ، تجاليد النغمات الشاردة عن عازقها الذى مضى .. متأسية بالحياة الثرية التى أضاعت وضحت قبل أن تقضى .

ولست هنا في هذه الدراسة ناقداً بقدر ما أنا عاشق ومحبة لهذا الشعر الذي بين يديّ، الشعر الذي احتواني واجتذبنى من حموى الكثيرة فأحال أيامي أثناء القراءة حياة نابضة ومتحركة بكل ما هو جميل وشريف ورائع !! وهل أجمل من معايشة الكلمة الشاعرة ؟!

ولذا فلا أملك هنا إلا أن أصرّح بعيني لهذا الشاعر الذي لم ألتق به، ولم أقرأ له الكثير من قبل، فوجب عليّ أن أعرض هذا الديوان بالدراسة المتأنية، محاولاً كشف أوجه الجمال والإبداع فيه ليكون تحية لذكرى الشاعر، واعترافاً من شاعر بإبداع شاعر آخر، كان له - وسيظل - فضلٌ على الشعر العربي بإبداعه هذا الديوان.

التجربة الأساسية في الديوان هي « التجربة العاطفية » وهي تجربة شمولية تبدأ من الخاص وتنتهي بالعام، تفتتح بالغناء للمحبوبة المحددة، وتختتم بالغناء للمحبوبة الأكثر شمولية، ومعظم التجارب يتجاوزها هذا الصراع الثنائي بين الوله والكبرياء، بين الرغبة في الحياة والإحساس بالموت، صراع أبديّ .. ينتصر فيه دائماً الحب والوله والعشق والطيام يروابطه القوة وحياله السرية التي تغفل أغذية الحب من أنهار الحياة وتصل دائماً بين العاشقين على الكره والبغض والسخط :

لهواك أنت .. وأنت أغلى الناس عندي
سأعيش .. أحيا الحب .. في وصل وصدة
أنا لن أخونك .. كيفما ضيعت عهدي
أنا لا أزال .. ولن يزال هواك قصدي^(١)

ولقد جاءت قصائد الديوان - وهي ستون قصيدة - مُقسّمة إلى أربعة أقسام وضع الشاعر لكل قسم عنواناً خاصاً، القسم الأول جاء بعنوان « نثر العصفير » ويضم هذا القسم خمس عشرة قصيدة.

والقسم الثاني بعنوان : « مع الناس .. أخذ وعطاء » ويضم سبعة وعشرين قصيدة والقسم الثالث بعنوان : « فراشات وأحلام وأطياف » ويضم اثنتي عشرة قصيدة ؛ ولكنها جميعاً تدور حول الصراع الثنائي بين التقيضين : بين الشباب والكهولة، بين الحب والبغض، بين الأمل والألم، بين الانفتاح والانغلاق، بين الحبر والنثر، بين الإصلاح والهدم .. ورغم اختلاف الأنسكال وتباين المضامين .. اعتمد الشاعر على إبراز ذلك كله بالصورة، واستغلال أسلوب القصص والحكي والسرد بالفنائية الثقافة واستعمال الرمزية والتراثية.

والشاعر « أحمد قنديل » في كل قصيدة يروجه المقفلة بالأمل والألم ملتزماً النسل الخليل^٢ النابت .. لم ينحرف إلى شعر التفعيلة الواحدة، أو ما يسمى بالشعر الحديث .. وإن كانت بعض

القصاص قد تأثرت بالشعر المهجى في شكلها وبالموشحات في الموضوعات الغنائية التي تحتاج هذا القالب بالذات . وسيزيد هذه النقطة توضيحاً حين نتحدث عن الصياغة الفنية .. والأسلوب والصورة .

أما الآن فلندخل إلى فكره .. وعاطفته من قصيدة « قطرات » التي تعتبر المدخل الحقيقي لحياة الشاعر وفكره وعاطفته . وحياته المفعمة بالرغبة والأمل في أن يخلق الطائر بشعره في نور الكون ، تاركاً العنان لهذه الحياة يذفها التيار ، وتلعب بها الأمواج . ياحتنا عن لحظة المعاناة التي تصهره وتشكله ألواناً ، وتغمره قطرات تذوب في بحر العمر المتلاطم :

في السماوات خلقتُ بجناحين كتابي والشعر .. فرحة عمرى
فتنة تشبه الفراشات حيرى وسناً راقص الضياء بفكرى
ألفتُ في الحياة بينهما الأمن وفي اليوم .. شعلة الفن ترى
بين ماضٍ مُدثرٍ بالأمانى قد توارت وحاضر متعزى
لا أعيش العيش الرتيب تظي أو تغطى ما بين صرٍ وقر
بل لأحيا نهبَ المعاناة لونا وشكولا ما بين حرٍ وقر
تلك إن شئت أو أبيت حياتي قطراتٌ تذوب في بحر دهرى
مثلها .. مثلها كثيرٌ إذا عُدَّ قليل في القصد عند التحرى
هذه صفحتى القصيرة يا صاح وكونى في الكون لاح بطر
أنا منها .. بها .. شقى سعيد في الصحارى أو فوق قمة بحر

بهذه الانطلاقة ، تتضح حياة الشاعر الباحث دائماً عن لحظة معاناة يتصهر فيها وبها ، ليعرف على فيثارة الألم أَسودته الذهبية . متارجعاً دائماً بين شيتين كما قلت : بين العاطفة المتأججة والعاطفة المتجمدة . يحيا ألواناً وأشكالاً ، بين إقبال على الحياة بكل ما فيها وبين فرار منها خوفاً من لحظات الجفاف ؛ فالحياة كما يعبر الشاعر « أحمد قنديل » عنها هي قطرات تذوب في بحر الدهر ؛ فهو من الحياة وبها مشبوح بين الشقاء والسعادة . تائه في الصحراء أو ضائع فوق لجة البحر .

ورغم هذه الرغبة العارمة في الحياة والبحث فيها عن لحظات المعاناة التي يشعر من خلالها بذاته وبقوته ، إلا أن الشاعر في معظم الديوان كان يطارده شبح الكهولة والإحساس بالضعف . وبطل يبحث عن روافد لتعمر حياته الذي أوشك على الجفاف . ترفده بقوة الشياح وعنفوانه . والنهر الحقيقي الذي كان يعدُّ الشاعر بالحياة وقوة النبض والإحساس بالشباب هو الحب !! الحب بكل ما فيه من لوعة واحترق وألم ودموع . ونهوج وانصهار :

أعزنى من شبابك يا حبيبى حياة أستعيد بها شبابى
فما فئت دواقعه بقلبي ولا برحت نوازعه صوابى
وإنسى رغم أحداث الليالى جديد العسر موصول الرغاب
ولكنسى بدونك بعض ذكرى وفضل صابرة وصدى عذاب^(٢١)

والأمثلة على ذلك كثيرة .. وكثرتها تؤكد غرام الشاعر بالحياة . يعل الحياة بدون حب نسمى

حياة ١١

وعائدة بالقلب نحو شباه حياة وأحلاماً وحباً وأملاً
أدمنت إليها الطرف ربان بالهوى طميشاً إلى ما جف منه وأحلاماً

ويظل منطلقاً في التصيدة بالنسبية راتمة . وبعاطف جبانة . محاوراً هذه العشوة العائدة من
رحلة الهجر والصد . حتى يقول في نهاية القصيدة :

تعزّز .. تصبّر بعدنا .. ربّ ليلة عجىء .. فتلقانا ونلقاك أولاً^(٢٢)

لا نكتمل أبداً لحظة الحب الموصول : ولكنها الثنائية التى تتناظر العاطف كلها عند « احمد
قنديل » فلحظة الوصل تهددها لحظة الهجر . والحياة يهددها الموت . والشباب تهدده الكهولة .
والأمل يهدده الألم . .. وهكذا .. وإن كان الشاعر دائماً يتشبّه بشيئين في منتهى الأهمية للانتصار
على الجذب والكهولة والألم والهجر والضعف والخوف هما : الشّر والحب : فالتشعر هو السلاح الذى
يسخر من خلال التسليح به أنه قوى وأنه ما زال يستلهم الكون والوجود والأشياء أعظم ما فيها من
أنغام .

والحب هو الدليل العملى على صحة القلب . وحياة الشعر . إن الحب عند الشاعر « احمد
قنديل » هو أعظم ما منح الانسان من عطايا من رب هذا الوجود . فكل كائن حى محب . فإذا
تلائى هذا الحب لحظة كانت تلك اللحظة في عالم آخر غير عالم الأحباء . وإذا فقد الانسان القدرة
على الحب فقد أصبح جنة تتحرك وقبرا يبحث عن ذبابة خضراء تظن فوقه لتؤكد أنه قير ٥

وغرام شاعرنا « احمد قنديل » بالحياة جعله حين يلتقط خيط التجربة الشعرية ينطلق منسأياً
كثير . لا يأبه بشيء غير النفس في لحظة الشعرية المتوهجة . لا يأبه بدقة الصياغة في بعض
الأحيان . ولا يتحسس الثغرات العروضية التى غفلت في هذه الاطلاقة . والكلمات المختارة للتجربة
قد تخلخل الوزن . ولكن الشاعر لا يحب أن يراجع الوزن حتى لا يغير اللفظة التى غيرت بدقة عن
صدق مشاعره .

فمثلا يكرر كلمة « التعذيب » في قصيدة « الأسى واليوم » في نهاية البيت السابع، والقصيدة بائية . وهي قصيدة رائعة ، ولكنه يكرر نفس الكلمة في البيت التاسع .. وهذا مما يأباه العروضيون : أن تتكرر القافية قبل سبعة أبيات على الأقل .

وبحر « الرمل » يأتي ثامنا ومجزوا : ولكنه في قصيدة « والتفتنا » أتى بيت في داخل القصيدة .. وهي من مجزوء الرمل - منطورا .. أى ثلاث تفعيلات فقط .. والقصيدة كلها من المجزوء كما قلت أى أربع تفعيلات .

غردا	للحب	لحنا	من	أحاديث	هوانا
واستعاداه	حيننا	وأعاداه	حنانا		
حين	هزئت	خفقات	القلب	مننا	شفطانا
هكذا	عائت	وعشناها	كلانا	...	

فالبيت الرابع ثلاث تفعيلات فقط ، مما يؤكد أن الشاعر إذا اكتملت عنده الصورة وتم المعنى . لا يأبه بعد ذلك باستكمال تفعيلات البيت .
وفي نفس القصيدة يقول :

صورة	تروى	حكايها	الحب	أنا	ثم أنا
فتنة	تسوى	وظلا	وأمانا		

أى يأتي بيت مجزوء ثم بيت منطوور يليه . كما قلت .. وهذا مما يرفضه العروضيون . وفي قصيدة « أنا من أكون » كسر عروضي أيضا في البيت :

بينى	ويسين	العصر	عصرك	جبل	قرون
------	-------	-------	------	-----	------

والقصيدة من بحر الكامل . والكسر واضح في الكلمتين الأخيرتين : « جبل قرون » .
وفي قصيدة « الأصفاذ » وهي من الكامل أيضا كسر عروضي في قوله :

أسى بمشاك المهين ... بها دفين

والنون الأولى في النطر الأول ساكنة لتكون قافية كالبيتين اللذين قبلها .. ولذا لو بقيت جملة « بها دفين » كتفعيلة خاصة تكون مكسورة عروضيا ؛ ولكن لو حركت النون الساكنة واتصلت بجملة بها دفين .. لاستوى الوزن .

وفي قصيدة « بداع » يلجأ الى منع صرف المصروف .. وإدخال « كما » على الاسم وذلك نادر في العربية ؛ لأن الاستعمالات القصيدة في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والشعر الجاهلي والاسلامي والعباسي .. لا نجد هذا الاستعمال لأن « كما » تدخل على الفعل ؛

ونسدا بهما التساوي يصوغ اللحن ناز كما الشعاع (هكذا)
وفي قصيدة « ذات الساري » يقول فيها :

صادفتها .. يا حننا لحظة صادفتها فيها لدى المصعد
قد ضمنا دنيا التفتينا بها ما فوق دنيا الناس للفرقد

دون تأنيث الفعل ضمنا لأن الفاعل هو دنيا والدنيا مؤنثة .
هذه أسئلة على تعجُّل الشاعر وعدم تأنيبه ونظيره في الشعر بعد كتابته للمراجعة وتصحيح ما يحتاج إلى ذلك . لأن المهم عنده هو الفكرة والدقعة الشعرية التي ما إن يقبض عليها حتى يصبها في أي قالب ويأبى ألفاظ تؤدي ما يحسه . وأرجو عند إعادة طبع هذه المجموعة أن تراجع وتصحيح مثل هذه المئات حتى تخرج المجموعة لاتفة باسم الشاعر الراحل « احمد قنديل » .
ولتحدث الآن عن الصياغة الفنية والموضوعات والصور الشعرية بإيجاز مركزين ذلك في نقاط محددة : لأننا قد تعرضنا في سياق الحديث السابق لبعض الملامح الفنية .

أولا : الشاعر « احمد قنديل » له قاموسه الشعري الخاص به . أي هناك كلمات أنيرة لديه يكرر استعمالها كثيرا في قصائده مثل : الحياة - الأيام - الأحلام - الدنيا - الوجد - الحب - الموت - السراب - الأمس - الهوى - الكلمات - الفلم - النسيب - القلب - العمر - الصبا - فجر الصبا - الذكريات - الأمانى - الزهور - العصافير - الصبا - الألحان - الهجر - النسيب .. وهكذا .
نجد أن هذه الكلمات ومشتقاتها وأضدادها كلمات أنيرة لقلب الشاعر . نكاد نجدها في كل قصيدة .. يختارها ليركب منها صورة ..

ثانيا : والصورة لديه دائيا واضحة .. وضوح الفكرة .. لا تعميم فيها ولا غرابة بل صور قريبة من قلب الجميع .. تتشكل دائيا لتؤدي دورها التوضيحي والتكثيفي لدى شاعر يعرف قدرته وطريقه لقلب المتلقي .. فينفذ دائيا إلى القلب دون مرور على المحواس الأخرى مثل السمع والبصر ؛ لأن قصائد الشاعر تحمل دائيا هموما عاطفية .. يشترك فيها معظم البشر ..

ثالثا : لم يلجأ إلى الكتابات والمجازات والاستعارات البعيدة الملفة ؛ لأن موضوعاته - كما قلت - قريبة من الانسان العادي . وهو لا يحمل أفكارا كبيرة فلسفية ولا مشكلات كونية إلا نادرا . ونحن

يتعرض لما يعرضها من جانبها الواضح السهل الذي لا يفقدها شاعريتها .

سألتني عن الحياة بنوها كيف مرّت أيامنا من قديم ؟
وأنا الشاعر المعبر عنها بنثر مستعذب ونظيم
بحياة مرّت كأحلام صيف أو كلفح من زمهرير مقيم
فأنتني في يدي السراخ وحارت بين رأسي معارفي وفهومي

رغم تساؤ السؤال واتساعه .. جاء الجواب بسيطاً وهادئاً : لأنّ الشاعر كما قلت لم يشأ أن يعاطب طبقة خاصة ، بل يتحنّس جراح الجميع في هدوء وأثران ووضوح .. وهكذا كان الشاعر الراحل « احمد قنديل » قلباً كبيراً متدفقاً بالرغبة في الحياة ، لم يدع أيامه تغلبه بين المموم الفلسفية ولا تحيرته أمام مشكلات الكون التي يطرحها السفسطائيون .. لأنّ الدين الإسلامي قد غرس في قلب المسلم اليقين والرضا والإيمان بنضاء الله وقدره ، وأبعد عن عقله تلك المشكلات التي حارت البرية فيها دون إجابة شافية .

هذه السياحة البسيطة في ديوان « نثر العصفير » متعة فنية رائعة ، لعلنا قد ألقينا الأضواء على شعر الشاعر الراحل « احمد قنديل » الذي يستحق دراسة أخرى، بل دراسات كثيرة تلقى الضوء على شعره ، وتعطيه حقّه كشاعر كبير .



● الزواجر ●

(١) من قصيدة « حياة الحب » ص ١٠ .

(٢) قصيدة « أغربني من شباك » ص ٩ .

(٣) من قصيدة « عائدة » ص ١١ .